التجارة الخارجية و الأسواق في إمارة ابن القاضي في العهد العثماني.

external trade and markets in the principality of ibn el kadi during the Ottoman era

D^{r}. BOUMOULA Nabil, Université Mohamed BOUDIAF- M'sila, Algérie

د. بومولة نبيل، جامعة محمد بوضياف- المسيلة، الجزائر

nabil.boumoula@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/16 تاريخ القبول: 2024/04/25 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

تعتبر التجارة وانعقاد الأسواق من بين الأنشطة الاقتصادية المهمّة التي أدت دورا في تطور الشعوب خلال الفترة الحديثة، ومنطقة القبائل بدورها قد ساهمت في النشاط الكبير الذي عاشته الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك بفضل موقعها الجغرافي الوسطي الذي يربط بايلك الشرق بدار السلطان، وكذلك يربط بين مختلف الطرق التجارية القديمة مثل طريق برج حمزة ومجانة وقلعة بني عباس والبيبان... فهذا الموقع جعل منها منطقة عبور القوافل التجارية بين الشرق والوسط، كما أن إشرافها على الشريط الساحلي فتح أمامها إمكانية الانفتاح على العالم الخارجي عبر الموانئ البحرية التابعة للمنطقة كميناء دلس وأزفون وبجاية، فهذه العوامل ساعدت وساهمت في النشاط التجاري الداخلي والخارجي.

كلمات مفتاحية: التجارة- الأسواق- الأنشطة الاقتصادية- إمارة ابن القاضي- الطرق التجارية- التجارة الدّاخلية والخارجية.

Abstract: :

Trade and market-making are among the important economic activities that have played a role in the development of peoples during the modern period, and the region of Kabyli acontributed to the greatactivitythat Algeria experiencedduring the Ottoman era, thanks to its central geographical location, whichconnects the EasternBaylek to the House of the Sultan, and also links severalancienttrade routes such as Burj Hamza, Majana, Beni Abbas Castle, Al-Biban.... This location has made it a transit area for tradecaravansbetween the east and the centre, and its supervision of the coastalstrip has opened up the possibility of opening up to

the outside world through the region'sseaportssuch as Dalles, Azfoun and Bejaia. Thesefactors have helped andcontributed to internal and external commercial activity ..

Key words: Trade - Markets - Economic Activities - Emirate of Ibn Al-Qadi - Trade Routes - Internal and external trade.

Résumé :

Le commerce et la tenue des marchés sont parmi les activités économiques importantes qui ont joué un rôle dans le développement des peuples durant la période moderne, et la région de Kabylie a contribué à la grande activité qu'a connue l'Algérie durant l'ère ottomane, grâce à sa situation géographique centrale, qui relie le Baylek oriental à la Maison du Sultan, et qui relie également plusieurs anciennes routes commerciales telles que Burj Hamza, Majana, le château de Beni Abbas, Al-Biban.... Cette situation en a fait une zone de transit pour les caravanes commerciales entre l'est et le centre, et sa supervision de la bande côtière a ouvert la possibilité de s'ouvrir au monde extérieur à travers les ports maritimes de la région tels que Dalles, Azfoun et Bejaia, ces facteurs ont aidé et contribué à l'activité commerciale interne et externe.

Mots clés : Commerce - Marchés - Activités économiques - Émirat d'Ibn Al-Qadi - Routes commerciales - Commerce intérieur et extérieur.

مقدمة :

تقوم بالتجارة الخارجية عادة الحكومات، أو الهيئات الممثلة لها كما يقوم بها بعض الأفراد، من خلال الشركات التجارية التي ينشئونها، ونظرا لكون منطقة القبائل تابعة إداريا إما لبايلك الشرق بالنسبة للجهة الشرقية أو إلى دار السلطان بالنسبة للجهة الغربية فإن حكومة الداي هي التي تشرف على التجارة الخارجية مباشرة، أو عن طريق ممثليها أو الشركات المحتكرة لبعض أنواع الصادرات والواردات كشركة اليهوديين بكري وبوجناح المشهورة، والتي اتخذت من قسنطينة مقرا لها منذ أواسط القرن الثامن عشر، فإنها كانت تعتمد أساسا في تصدير بضائعها على موانئ عنابة وسكيكدة والقلّ فبقي ميناء بجاية بعيدا إلى حد ما، عن الاستغلال الذي كان عليه قبل سقوط المدينة في يد الإسبان، بالرغم من العلاقات التجارية التي كانت تربطها مع القارة الأوروبية وكثير من دولها.

ومن خلال هذه الدراسة سنحاول معرفة أهم مظاهر التجارة الدّاخلية والخارجية ونظام المبادلات القائم في هذه الفضاءات الحساسة (الأسواق) في إقليم إمارة كوكو ، وما حقيقة الدور الذي تؤديه في حياة الساكنة؟ وما هو حجم ونوع المبادلات القائمة بتعدد نظم البيع والصرف لذلك العهد؟

ولتحقيق ذلك اعتمدنا على منهج قائم على الدراسة الوصفية والاستقرائية والتحليلية المقارنة لماهية وحجم نظم المبادلات التجارية القائمة في هذا النطاق الجغرافي الذي أصبحت إيالة الجزائر وبايلك الشرق يسهمان بدور فعال في متابعته وتنظيمه تحت إشراف قوى محلّية ممثلة في أمراء أولاد القاضي بكوكو، وبني عباس بنطاق القلعة.

كان الهدف من الدراسة والموضوع معرفة حجم المبادلات التجارية وتنوعها في نطاق الدراسة وكذلك معرفة طبيعة السلع المحلّية والمستوردة التي ترد إلى وتخرج من هذه الأسواق، بالإضافة إلى معرفة مختلف العملات المتداولة بها وحجم تأثيرها، بما يبرز قوة الدولة ومدى تحكمها في نظام العملات والصرف في هذه المعاملات والبيوع.

إن التجارة هي العصب الحساس و المهم بالنسبة للسكان، إذ لها علاقة مباشرة بالفرد كمورد هام للمواد المستجلبة والمباعة على حد سواء، وهذا النوع من التجارة كان يتم في القرى و المداشر الكبيرة التي عرفت تبادلا واسعا للسلع بين مختلف مناطق البلاد نتيجة العوامل التالية:

- تحقيق الفائض في المنتجات والمحاصيل الفلاحية كالزيتون، وهو الأمر الذي جعل سكان المنطقة يعملون على نقله إلى الأسواق الداخلية، واستبداله بالمنتجات التي تحتاج إليها المنطقة (OulhadJ 2018,p270).

- وجود بعض المنتوجات الصناعية الرائدة بالمنطقة والتي لها سمعة كبيرة مما جعل التجار يعملون على نقلها إلى الأسواق الداخلية خاصة المنسوجات الصوفية والأسلحة والأدوات الفلاحية.

- حاجة السكان إلى السلع الغير منتجة محليّا (سعيدوني 2000،ص108).

- سهولة الاتصال بين السكان والانتقال بين أسواق البلاد نتيجة عدم تعرض السلع إلى الرسوم الجمركية، ما عدا الضرائب التي تفرض على بعض المنتجات.

- تدخل السلطة في تنظيم الأسواق التجارية وتوزيعها والإشراف عليها.

تنتشر الأسواق في مختلف أنحاء منطقة القبائل، وتأخذ أسماءها من القرى التي تعقد فيها أو من أيام الأسبوع التي تحدد السوق، فمثلا يكون السوق يوم السبت في عرش بني يحي، ويوم الأحد في إرجن، و الأربعاء ببني واسيف ويوم الاثنين بأقبو (OulhadJ, 2018, p317)

فهذه الأسواق يتم الاتفاق عليها بين السكان والأعراش القريبة إليها وتحدد نوعية السلع التي تباع فيها، والأيام التي تعقد خلالها، حتى يتسنى للمواطنين قضاء مآربهم المختلفة.

إن تدخل السلطة في تنظيم الأسواق من بين أهم العوامل التي ساعدت، في مراقبة السلع وفرض الضرائب عليها خاصة الأسواق الأسبوعية(Aucapitaine، 1859 -p74,1860) التي تكون أماكن انعقادها قريبة من أبراج المراقبة كسوق حمزة وسوق مجانة وجمعة الصهاريج وغيرها-(OulhadJ, 2018,pp370 375) ، أما بالنسبة إلى نوع آخر من التجارة الموجودة بالمنطقة، فهي التجارة المتنقلة التي يقوم بها تجار ينتقلون بواسطة دوابهم، أو حملا على ظهورهم بين القرى و التجمعات الرّيفية، والتي تختص عادة بالعطور وبعض المستلزمات اليومية والتي ذكرها صاحب سيرة الزواوة في قوله:

« فلكثرة تجارتهم يشترون العطر من المدن ويبيعونها في بلاد العرب والبعض يبدلها بالصوف» (مجهول،دت،و15) وهذا ما يبين كذلك نوعية هذه المواد التي يشتريها هؤلاء التجار المتجولون ويعيدون بيعها إضافة إلى كيفية نقلها (كاربخال، 1989 ،ص377).

1\ التجارة الخارجية:

تقوم بالتجارة الخارجية عادة الحكومات، أو الهيئات الممثلة لها كما يقوم بها بعض الأفراد (الزبيري، 1984،ص77) ، من خلال الشركات التجارية التي ينشئونها، ونظرا لكون منطقة القبائل تابعة إداريا إما لبايلك الشرق بالنسبة للجهة الشرقية وإلى دار السلطان بالنسبة للجهة الغربية فإن حكومة الداي هي التي تشرف على التجارة الخارجية مباشرة (جهيماب) (الملحق رقم:01)، أو عن طريق ممثليها أو الشركات المحتكرة لبعض أنواع الصادرات والواردات كشركة اليهوديين بكري وبوجناح المشهورة (الزبيري، 1984،ص83) ، والتي اتخذت من قسنطينة مقرا لها منذ أواسط القرن الثامن عشر، فإنها كانت تعتمد أساسا في تصدير بضائعها على موانئ عنابة و سكيكدة و القلّ فبقي ميناء بجاية بعيدا إلى حد ما عن الاستغلال الذي كان عليه قبل سقوط المدينة في يد الإسبان، بالرغم من العلاقات التجارية التي كانت تربطها مع القارة الأوروبية (كاربخال، 1989،ص377) وكثير من دولها.

إلا أن ذلك عرف تراجعا في العهد العثماني نتيجة اتخاذ مدينة الجزائر عاصمة للدولة ومقرا للمؤسسات والشركات، فانتقلت إليها الأسر الثرية التجارية، وبذلك تراجع دور ميناء بجاية، والشيء نفسه بالنسبة إلى الموانئ الأخرى كميناء أزفون، وميناء دلس فهذه الموانئ لم يكن لها دور كبير ما عدا فترة بروز إمارة آل القاضي، التي استخدمت هذه الموانئ للاتصال بالعالم الخارجي (ساحي، 2015،ص118).

وعلى العموم فإن منطقة القبائل عامة وموانئها خاصة تراجع دورها التجاري فيما يخص التجارة الخارجية خلال هذه الفترة وهذا الذي جعلها لم تواصل الدور التجاري الذي كانت عليه في العهود السابقة (العهد الحفصي الحمادي)، ولم تساهم في إحداث ثورة داخلية (الزبيري، 1984،ص111) وانقلاب اقتصادي مثل الدور الذي لعبته التجارة في أوروبا خلال الفترة الحديثة.

إلا أن حاجة المنطقة وحيوية موقعها جعل الموانئ الساحلية لمنطقة القبائل تحاول استرجاع مكانتها التجارية في الحوض المتوسطي عامة (وثيقة رقم39، جمادي الأولى سنة 1200 هـ)(الملحق

رقم :02)، على الرغم من الاتجاه العام للسياسة المتبعة من قبل الدولة، والتي تعتمد على الغزو البحري في إثراء خزينتها، أي أن الموانئ كانت قد ساهمت في نشاط الحركة التجارية وأصبحت أكثر استعمالا لأغراض عسكرية منه للأغراض التجارية(الملحق رقم: 03).

أما عن التجارة مع الأقطار الإفريقية فكانت تتم مع القوافل (بوعزيز، 1980،ص ص 13-30) الصحراوية الكبرى التي تغدو وتذهب بين موانئ المنطقة وأسواق وواحات أعماق الصحراء الكبرى الشتاء والنيجر ومالي وإفريقيا الوسطى والسنغال وتوات والسودان الغربي، ومن مميزات هذه القوافل أنها كانت تتاجر بالبضائع المحلية وبضائع أوروبا المستوردة فيستغل السكان مرورها بترابهم ومناطق تجمعهم فيحتشدون بسلعتهم وبضائعهم إليها (بومولة، 2013،ص50).

ومن أهم المواد التي تستوردها إمارة كوكو نجد التبر من السودان-1859 ,Aucapitaine) (1860,p73 ، وكذلك العبيد الذين يستخدمهم سكان القرى في الأعمال الفلاحية الشاقة، وكذلك العاج المستخرج من أنياب الفيلة، الذي يصل المنطقة عبر واحات الجنوب، و من هنالك ينقله تجار الصحراء نحو المناطق الشمالية (بومولة، 2013،ص ص 50-51) ، كما تستورد كذلك مواد أخرى مثل ريش النعام والبن والسكر.

تجدر الإشارة أن سكان إمارة كوكو كانوا يتعاطون صناعة النقود (السكة المزورة) و هم معروفون بذلك حيث لم يكن للمملكة عملة خاصة بها رغم وجود دار لصك العملة منذ عهد الحماديين.

فقد تداولت العملات المعروفة في الجزائر ودول البحر المتوسط داخل الإمارة (قاسيمي، 2007،ص80) وفي مختلف تعاملاتها الاقتصادية سواء الداخلية أو الخارجية ومن بين العملات السائدة آنذاك، نجد البياستر الإسبانية والريال شكوتي (الرباعي)، وهي عملة التجارة الأوروبية في الجزائر قبل الاحتلال ونفس الشيء بالنسبة لقلعة آث عباس التي تتعامل بالعملة السائدة في باقي أرجاء البلاد (BOUMOULA, 2015 ,p28).

وعمد هايدو إلى ذكر العملة الزيانية التي كانت تتداول في مملكة كوكو وأيضا الدينار الحفصي والدورو الإسباني المقابل للإيكو والدوكا، وأيضا المثقال الفاسي والسكينة التركية بالإضافة إلى السلطان الذهبي والموزونة المغربية التي تساوي صوردي ونصف، وهي متداولة بكثرة في منطقة القبائل ,OulhadJ) (p365, 2018 ، وهناك المحبوب التونسي التي تساوي 20 موزونة ونجد أيضا الريال الكورنتيو وهو يساوي 4 ريال كواتر أي 2،40 سنتيما، وكان سكان منطقة القبائل يميلون كثيرا إلى هذه الأخيرة من أجل إذابتها قصد صناعة الحلي الذهبية وعلاوة على ذلك نجد الإيكو الفرنسي، وهي نفس قيمة الإسباني والمثقال الفاسي الذي يساوي 170 أسيرا، وهناك الدورو الجزائري الذي يساوي 2 بوجو (خوجة، 2005،ص29).

2 \ الأسواق في منطقة كوكو ودورها السياسي والاجتماعي:

تعتبر الأسواق فضاءات اجتماعية واقتصادية تعبر عن مدى نشاط منطقة معينة كما تعتبر في نفس الوقت فضاءات سياسية غالبا ما فرضت السلطات العثمانية قبضتها على أسواق منطقة الزواوة للضغط على القبائل التي لا تدفع الضرائب أو المعادية للسلطة(boumoula, 2012,p159) وكانت من استراتجيات الأتراك العثمانيين لمحاولة إخضاع المنطقة بالتحكم في الأسواق الأسبوعية ,إستراتجية الأتراك العثمانيين اتجاه القوة الناشئة ببجاية (بومولة،2017 ،ص 170) وكان نصيب منطقة الزواوة (الشرقية والغربية) من هذه الأسواق وافر وقد قدرت في مطلع ثلاثينات القرن 14م بـ 68 سوقا منها 55 في منطقة القبائل الغربية لوحدها (شويتام، 2009،ص341).

فغالبا ما يقترن اسم السوق الأسبوعية باليوم الذي يعقد فيه، والقبيلة التي لها شرف عقد السوق والتي تقدم المكان للباعة والمتسوقين على حد سواء، فنجد مثلا اسم سوق الأربعاء آيت ايراثن وسوق الأحد لبني بوشعايب، في بعض الأحيان يطلق اسم السوق على حساب المكان الذي حدثت فيه معركة أو صراع تاريخي مثل سوق سبت علي خوجة. (هانوتو و لوتورنو، 2013،ص ص 119-125).

ولاختيار موقع السوق يخضع إلى عدة قواعد حسب كل قبيلة وغالبا ما يكون السوق خارج النسيج العمراني(Djoudi, 2018,p360) وعادة ما تقام على مقربة من المجاري المائية أو بالقرب من عين أو منبع، ومن الأفضل أن تكون مجاورة لمنطقة ذات أشجار توفر الظّل، فالسوق الذي يوفّر الراحة ويفسح المجال لقضاء اليوم دون عناء، وهو عادة الأكثر استقطابا وجذبا للناس (هانوتو و لوتورنو، 2013ص ص 119-125).

وكذلك من الأماكن القريبة من المساجد أو الأضرحة الخاصة بالمرابطين وشيوخ الدين لتبيان مدى عراقة القبيلة المنظمة للسوق، وكذلك كنوع من الأمان الذي يبعث في روح قاصديها (p360, Djoudi,2018) ، وغالبا ما يتولى شيخ القبيلة مهمة السير الحسن للسوق ويعرف بشيخ السوق (هانوتو و لوتورنو، 2013،ص ص 119-125).

أما بالنسبة لميلاد هذه الأسواق فيؤكد مارمول تواجدها بالمنطقة أقدم بكثير من الأتراك العثمانيين ويخص بالذكر سوق جمعة الصهاريج بقوله: «على سفوح الجبل المطلّ على السهل، نستطيع عدّ أكثر من خمسمائة بيت (جمعة الصهاريج) والذي ينقسم إلى عدّة أحياء أين تعقد السوق كل يوم جمعة» (كاربخال، 1989،ص 354).

وهي غالبا ما تعتبر أماكن سياسية بامتياز، ففي السوق يمكن سماع حظر السفر والدعوة إلى حمل السلاح ضد قبيلة معينة، والسماح بقطف المحاصيل الزراعية بعد انتهاء فترة المنع وجميع الأخبار التي تهم حياة الأفراد و القبائل، فهناك تتداول الأخبار السياسية (Oulhadj,2018 ،p262-263J) المثيرة، والتي سيتم نشرها والتعليق عليها فيما بين الجماعة (تاجماعت) أو مجلس القرية، وكذلك في السوق تناقش القضايا العامة للبلاد، وتطرح مصالح الحزب (الصّف) والقبيلة والكنفدرالية، وهناك كذلك

يمكن الاطلاع على الشؤون الخاصة لما يدور بين القرى التي قد تقوم باتصالات مع قبائل مجاورة من أجل إثارة الأحقاد وتدبير الدسائس والمؤامرات و نسج مخططات الانتقام (هانوتوولوتورنو، 2013،ص ص 119-125).

1/4/6 أنواع الأسواق:

تختلف وتتنوع الأسواق في منطقة الزواوة (الشرقية والغربية) حسب أعراف وتقاليد كل منطقة، وحسب التنظيم السياسي والحزبي (الصفوف) لكل منطقة، وهذا نظرا لأهمية السوق في التنظيم الاجتماعي لمنطقة القبائل، فقد أحصى كاريت أكثر من 83 سوقا بمنطقة القبائل(Carette, 1844,p402) ، أغلبها أسواق تسيطر عليها سلطات الإمارة ، وهي الأسواق الداخلية وأكثر من 78 سوقا تسيطر عليها القبائل الغير خاضعة لسلطة الأتراك ولا سلطة الإمارة.

أ - **السوق المحلّية (Marché local):** وهي النواة الأولى للأسواق التجارية الكبرى الخاصة بالمناطق البعيدة عن الإمارة وتعرف أنها أماكن المقايضة واستبدال البضائع ببعضها البعض، وتشكل أساسا من السكان المحليين لمنطقة معينة أو لقرية معينة حيث لا يدخلها أجنبي عن هذه القرية، وعادة ما تتداول ما تنتجه البساتين الخاصة بكل عائلة، ويصل أقصى تقدير إلى أربعة قرى على الأكثر، وهي المرتبطة ببعضها البعض بالعلاقات الاجتماعية المتينة والمصاهرات (Djoudi,2018,pp262-263) وغالبا ما تكون تحت أعين سلطة الإمارة باعتبارها تجمعا سياسيا قد يشكل تهديدا لهذه الأخيرة.

ب- **السوق القبلية (Marché tribal):** وهي أكبر مساحة وعدد الباعة من السوق المحلية، و تتكون غالبا من مجموعة من القرى والمداشر التابعة لقبيلة معينة والتي تمتلك الفضاء (مكان انعقاد السوق)، في هذه السوق تستطيع القبائل المجاورة أن تشارك فيه سواء بالبيع أو الشراء، وحتى أنها قد تجلب قبائل من نواحي بعيدة حيث تعتبر كمصدر لأموال المكوس التي تحصل عليها القبيلة المنظمة لهذه السوق، ويتبادل فيها السلع بالمقايضة أو بالأموال المعروفة آنذاك، حيث تفرض ضريبة غير مباشرة على أهل القبيلة، زهيدة على بيع الأماكن والمواقع وضريبة تحت تنظيم (أمين السوق) (هانوتو و لوتورنو، 2013،ص ص 119-125) ، ويستفيدون بدورهم بحق الحماية (لعناية)، فالشخص الغريب الذي يأتي إلى هذه السوق ثم ينصرف يكون محميا على اتساع مساحة أرض السوق فالعناية (الحماية) بالنسبة لأهل القبيلة شرف لا يجب أن يمس وإلا أصبحت سمعة القبيلة في الحضيض (OulhadJ,2018,pp262-263) ، وغالبا ما يلتقي فيها أفراد القبائل التي هي في حالة حرب أو صراع مع نظرائهم وجها لوجه بلا عتاب ولا ضغينة، و ينهون بيعهم و شرائهم في سلام وهي من واجبات أمين السوق الذي يستعين بمجموعة من رجاله (هانوتوولوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

ج- السـوق الكنفدراليـة: وهي أكبر وأوسـع مـن الأسـواق المـذكورة سـابقا مـن حيـث عـدد الباعـة والقاصـدين لهـذه السـوق وكـذلك مـن حيـث المسـاحة (Djoudi,2018,p362) ، وغالبـا مـا يكـون تحـت الحراسة الأمنية للسلطة العثمانية، إذ من هذه الأسواق تعقد الهدنة أو الحرب ضد المصالح العثمانية في المملكة وهي السوق التي تستطيع أن تجتمع بها أغلب القبائل التابعة لسلطة إمارة كوكو، وغالبا ما تكون من القبائل الموالية لها. فالعلاقة بين سلاطين الإمارة و الكنفدرالية هي من تحدد تواجد السوق من عدمها (Djoudi, 2018,pp262-263) ، على كل فرد ومواطن أن يتماشى سلوكه مع هذه الرغبة وكبير السوق (ameqran n suq) يعامل الأجانب بتسامح أكثر من مواطنيه، هؤلاء الآخرين لا يرضون بهذا التحيز و يبدون تذمرا مما يدفع قبيلة هؤلاء والذين مسهم الأذى أخذ حقوقهم بأيديهم عندما لا تجد تظلماتهم قبولا لدى الطرف الآخر (هانوتوولوتورنو، 2013،ص ص119-125).

رئيس السوق لا تهمه وتعنيه سوى الانتهاكات والمخالفات التي تمس بالأمن العام وحرية المعاملات التي تجري في السوق، فجميع النزاعات المدنية أو التجارية التي قد تحدث تحال على مرابط (رجل دين) القبيلة الذي يقوم مقام القاضي ويدعى عالم السوق، يقيم في مكان خاص به ويحيط به جميع المرابطين المساعدين، إذ كان حضور أطراف القضية أمام العدالة قد تمت بواسطة رئيس السوق أو من طرف مساعديه فإن كلمة الفصل الأخيرة تعود في موضوع الخلاف إلى العالم، و لكن يحق لأطراف النزاع طرح القضية على محكمة أخرى إذ كان ضروريا، ومن مهمة رئيس السوق تنفيذ قرارات العالم واحترام مكانته، وكل تجاوز لحدود اللياقة والمس بهيبة العدالة جزاؤه العقاب(Carette, 1844,pp356-359) .

حصيلة الغرامات وعائدات بيع أماكن الكيالين تبقى تحت تصرف رئيس السوق تلك المبالغ المالية تستخدم في صيانة وتعبيد الطرقات المؤدية للسوق وصيانة العين (النبع) والمسجد أما المبالغ الباقية فتخصص لدفع المصاريف الخاصة للقبيلة كلها.

أما القبيلة التي ليس لها سوق، فتبادر إلى إقامة واحد في أراضيها وتتم المحافظة على نفس أيام افتتاح السوق القديم قبل نشوب الحرب، وعندما يحل السلام يتم إزالة السوق الجديد، وإذا وقع خلاف مدني وأدى إلى شطر القبيلة، فالحزب إذ كان على مستوى من القوة في طرد العدو يضع يده على السوق والغرامات المحصّلة خلال فترة الاضطرابات و تبقى ملكا للحزب (هانوتو و لوتورنو، 2013،ص ص 119-125). بالإضافة إلى أهم الأسواق التي تحدثنا عنها فإن هناك أنواعا أخرى من الأسواق التي تعقد في منطقة القبائل وغالبا ما تكون خارجة عن نطاق الحدود الجغرافية للمنطقة المقصودة، على سبيل المثال سوق المنطقة وهو الذي يجمع بين سكان الزواوة الغربية (إمارة كوكو) والزواوة الشرقية (إمارة البيبان) وغالبا ما يعقد هذا النوع من السوق كل خمسة عشرة (15) يوما وأكثر أو حتى مرة كل شهر، وقد جرت العادة أن يعقد بالتداول فمرة بزواوة الغربية ومرة أخرى بالزواوة الشرقية (Djoudi,2018,pp369-370).

هذه الأسواق الجهوية لها تأثير واسع على الأحداث في منطقة القبائل فغالبا ما تفرغ المنطقة من رجالها ولا يبقى في البيوت إلا النساء كون هذه السوق ذات طابع سياسي أكثر مما هو اقتصادي، فيجتمع

الرجال ويتوجهون إلى هذه السوق لمعرفة الأحوال السياسية للبلد وما هي الأمور الجديدة، وأكبر هذه الأسواق الجهوية في منطقة الزواوة الغربية نجد سوق سيباو (Carette,1844,p353) ، ويقع هذا السوق في قلب منطقة سيباو على الحواشي لنهر سيباو، واختيرت هذه المنطقة نظرا لسهولة الطرق المؤدية إليها وقربه من مياه الواد وعلى ضفافه تباع أعلاف الماشية لأن السوق تستمر إلى غاية نهاية اليوم.

ويذكر كاريت أن هذه السوق تأتيها القبائل من كل مكان من بلاد القبائل، وحتى من جارتها قبائل البيبان وهذا هو الهدف من إيجاد هذا النوع من الأسواق(OulhadJ, 2018 ,pp369-370) ، فنجد آث جناد، آث واقنون (تاقصابت) آثعمراوة، آث خليلي، آثايراثن، آث يحي (ميشلي) آثبوشعايب، وآث غبري، هذا فيما يخص أهم أعراش الزواوة الغربية التي كانت ترتاد السوق باستمرار، كما نجد كذلك قبيلة بني شلمون من منطقة إفليسنأومليل وقبائل يسر التابعة لبومرداس والتي تشتري الزيت والتين المجفف بكميات كبيرة، وتبيعها بأثمان زهيدة بأسواق مدينة الجزائر، وبالمقابل تشتري الحبوب والقمح والشعير من هذه الأسواق(Carette, 1844,p353) .

أما من قبائل البيبان (بني عباس) من الجهة اليمنى للإمارة فنجد قبائل افناين أكفادو التي تعودت التسوق في منطقة سيباو وكانت تقصدها خاصة للتبضع بالوسائل الفلاحية والأدوات الزراعية وكذلك أدوات الحدادة (بومولة، 2009- 2010،ص 99).

من الأسواق المعروفة كذلك بحجمها الكبير (سوق إقليمية) نجد سوق الأحد لمزالةl'hedNimezalin والكثيفة جدا التي ترتادها قبائل بني خلفون وبني يني والمعروفة بتجارتها بالعنب المجفف، وكذلك قبائل نزليوة ومعاتقة وقبائل يسر والعمراوة.

وفي الجهة المقابلة لإمارة كوكو نجد أسواق إمارة بني عباس التي يرتادها كذلك أعراش وقبائل إمارة كوكو ونذكر أهم هذه الأسواق(Djoudi, 2018,p368) :

سوق الأربعاء عند بني بومسعود، وهي سوق تنعقد في القبائل الشرقية وتعتبر من أكبر أسواق المنطقة المقابلة لإمارة كوكو، ينعقد في منطقة تسمى إغيلأوبرواق وتقصدها القبائل من الجهات الأربع للزواوة(Djoudi, 2018,p371) ، وتعطى الأولوية في اختيار الأماكن لأصحاب الأرض التي تقام عليها السوق والسكان المحليين. ومن القبائل التي ترتادها نجد قبائل إمزاين (المزاية) وآيت ميمون وبني آيت عمر وبني صنهاجة قرب منطقة أماسين وبني محمد بكنديرة وغالبا ما تختص هذه السوق بالمواد الضخمة لخدمة الأرض والفلاحة(E) Daumas, 1847,pp433-434)) .

أما السوق الثانية الأهم في منطقة الزواوة الشرقية فهي سوق الاثنين عند إفناين (تابعة لأكفادو) وهي سوق معروفة في جل المناطق المحيطة بمنطقة القبائل، حيث تنعقد هذه السوق عند آث أحمد أومنصور والتي تقصدها الأعراش البعيدة وحتى من بجاية المدينة مثل إمزاين وبوداود من منطقة أقبو وما جاورها حتى مرابطي منطقة تازروت قرب الحدود مع القبائل الغربية (تيزي وزو)، آث أومالكو، آث أحمد أوقارت من جبال إيباريسن وبني كسيلة من جهة الشواطئ.

ولدى هذه السوق صبغة دينية حيث كان شيوخ الزوايا والمرابطين يقصدونها بكثرة فمنهم المرابط سيدي أمحند أو مالك المعروف بمنطقة أسيف الحمام، وآيت أحمد المعروفين بزواياهم حيث كانوا يقومون بإلقاء الخطب الدينية المؤثرة، ولا يستبعد الكثير من المؤرخين أنّ رجال الدّين كانوا يقصدون هذه السوق لكسب الولاء والطاعة في هذه المنطقة (ظاهرة المرابطية)(Djoudi, 2018,p371) .

ولقد أسهبت نوعا ما في موضوع أسواق إمارة كوكو، ذلك لأن دور السوق في الحياة الاجتماعية محوري وكانت له انعكاسات حتى على المستوى السياسي، إذ تعتبر الأسواق في منطقة القبائل فضاءات سياسية مفتوحة غالبا ما اتخذت بها قرارات سياسية خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بالسلطة المركزية بدار السلطان وسكان الإمارة إذ كانت السوق في كثير من الأحيان مركزا لجمع ولم شمل القبائل في حالة الحرب والصراع كما أن هذه الأسواق تعتبر الشريان الاقتصادي الوحيد والهام بالنسبة لبلاد مغلقة على العالم الخارجي (ساحي، 2015،ص 141) ، كما تعتمد عليها الزواوة - الأسواق الكبيرة- في تصريف الفائض من منتوجاتها الزراعية والحيوانية والصناعية ومن خلالها تحاول توفير حاجياتها من المواد الغذائية والأدوات المعدنية وأدوات الفلاحة وكذلك تثري الاقتصاد بالمواد الإستراتيجية كالفضة والبارود والأسلحة.

2/4/6 العملات المتداولة:

اهتم سكان إمارة كوكو كذلك بصناعة السكة باعتبارها من العوامل المهمة في الحركة التجارية و التي كانت تصنع في محلات وجدت لهذا الغرض (كاربخال، 1989،ص376) وكانت على شكل قطع صغيرة (الوزان، 1985،ص 102) تصنع من الذّهب والفضّة وتنقش بمهارة عالية (خوجة، 2005،ص29).

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الإمارة كانت تتعامل بالعمولات المعروفة آنذاك والخاصة بعملة السلطة المركزية أو العمولات الأوروبية ولم تكن لها عملة خاصة بها رغم توفر مصانع خاصة بالعملة، وقد انتشرت هذه الصناعة (صك العملة) في كل من منطقتي إيلولة وبني يني اللّتين كانتا تحترفان صناعة الفضة والذهب وصك العملة منذ عهد بجاية الحمادية (ساحي، 2015،ص152). وقد تداولت في المملكة عدّة عملات سواء في معاملاتها الدّاخلية أو الخارجية(Berberuger, 2011 ,p28) ، ومن بين العملات السائدة في الإمارة آنذاك نجد البياسترو والإسبانية والريال الشوكوتي (الرباعي) وهي عملة التجارة الأوروبية في الجزائر قبل الاحتلال (بن شيخ، 2017- 2018،ص143) كذلك ذكر هايدو العملة الزيانية التي كانت تتداول في الإمارة وكذلك وجد في الإمارة الدينار الحفصي و الدورو الإسباني المقابل للإيكو و الدوكا كما نجد كذلك المثقال الفاسي والسكينة التركية بالإضافة إلى السلطان الذهبي و الموزونة المغربية التي تساوي صوردي ونصف هي متداولة بكثرة في منطقة الزواوة، أضف إلى ذلك المحبوب التونسي الذي يساوي عشرين موزونة (الزبيري، 1984،ص 71) كما نجد الريال الكورنتيو وهو يساوي أربع ريالات أي 2.40 سنتيما وكان سكان منطقة القبائل كثيرا إلى الكورنتيو قصد إذابتها لصناعة الحلي الذهبية وعلاوة على ذلك نجد الإيكو الفرنسي الذي يساوي في قيمته ذلك الموجود في إسبانيا وهناك كذلك المثقال الفاسي

الذي يساوي 170 أسبيرا وكذلك الدورو الجزائري الذي يساوي 2 بوجو (بن شيخ، 2017-2018،ص 143).

والجدير بالذكر أن سكان إمارة كوكو ساروا على نهج سكان إمارة بني عباس المشهورين بصناعة النقود المزورة (بومولة، 2009- 2010،ص56) حيث كان صناع إمارة كوكو يصدرونها إلى الأسواق الأمر الذي عرضهم للمضايقة من طرف سلطان مدينة الجزائر (شلوصر، 2007،ص ص 96-97) ، ويشير إلى ذلك حمدان خوجة في قوله: « يوجد في هذه القرى كذلك مشاغل تصنع فيها النقود المزيّفة فالأهالي ذوو مقدرة فائقة على نقش المعادن و تقليد جميع أنواع النقود مثل نقود الجزائر وقروش إسبانيا (خوجة، 2005،ص29) هذا ما جعل التجار المتعاملين يخشون عملتهم» (مجهول،ورقة 16) ، ولم تكن هذه الظاهرة محصورة في الزواوة الشرقية والغربية فحسب وإنما عرفت بها بعض المناطق الأخرى من الوطن (قاسيمي، 2007،ص80) وقد لجأت السلطة المركزية إلى استعمال عدّة وسائل للحدّ من هذه الظاهرة التي أضرّت باقتصاد البلاد.

وهذه بعض العملات المستعملة في منطقة الزواوة وما يقابلها من عملات أخرى:

أ- السكة الثقيلة:

- الإيكو الذهبية.
- المثقال الفاسي.
- السكينة التركية.
- الزيانية التلمسانية.

1. الرباعية الإسبانية (ريال رباعي) أكثر رواجا من الريالات الفضية دورو أو خمسين وخمسة فرنك (Federman, 1867 ,pp112-121).
2. الثمانية الرباعية واسعة الانتشار في الهند و الصين أهم سكة في الجزائر.
3. الريال الإسباني.
4. الموزونة في الصحاح كما في محاضر نائب الأحكام.

ب- السكة المشاعة والعادية:

منها العملات الخاصة ووضعية نحاسية وفضية وذهبية يتصرف فيها البايات:

- البورية النحاسية 6 منها: الأسبير أو الدورو يساوي 5.50 فرنك.
- الأسبير فضية 10 منها: ريالا إسبانيا تصنع أيضا مع الأسبير والبورية.

- الرباعية الزيانية التلمسانية شائعة الرواج في كوكو وبسكرة وبني العباس وتونس والجزائر.
- السلطاني الذهبي يساوي 140 أسبير صناعة الجزائر شائع الرواج.
- السكوين ذهب يساوي 108 موزونة.
- المحبوب يساوي 72 موزونة (ساحي، 2015،ص153).
- الفيلون يساوي 5.43 فرنك غير ثابت و قد ورد ذكره في كتابنا السابق.
- عملة النحاس.
- فلس ¼ صوردي.
- الدرهم 5/1 فلس.
- الصوردي 30 درهما.
- الموزونة يساوي 180 درهما أو رباعية 240 درهما أو ريال كوارتز مذكورة أيضا.
- الخروبة فضية يساوي 15 درهما.
- البطاقة شك يساوي ريال كوارتز و يساوي أيضا 60 سنتيما (Berberugger, 1864,pp303-307).

ج- العملات الأجنبية العالية التداول:

- الموزونة المغربية تساوي صوردي ونصف وهي متداولة جدا في نطاق الزواوة (ساحي، 2015،ص154).
- المحبوب التونسي يساوي 7 ريالات كوارتز أو 20 موزونة.
- الزيانية يساوي 7 موزونات أو 10.5 صوردي.
- الزياني بوجوه ثلاث مرات زياني عادي 21 موزونة أو 3.45 صوردي.
- الريال الكورنتي يساوي 4 ريالات كوارتز 20.40 سنتيما.
- علّق هايدو على الزواوة واليهود العاشقون كثيرا للريال الكورنتي لإذابتها وصناعة الحلي الذهبية وربما صاغ البطاقة شك ويساوي 60 سنتيما أو 8 موزونات.
- الإيكو الإسباني 125 أسبيرا تصرف بها جعفر باشا ورفعها إلى 130 في 1580.
- الإيكو الفرنسي أو الصولداري الإسباني نفس قيمة الإسباني.
- السكين السلطاني القسنطيني يساوي 150 أسبير.

- المثقال الفاسي يساوي 170 أسبيرا 252 في عهد جعفر باسا كما رفع السلطان إلى 175 أسبير.
- الدورو الجزائري في عهد حسن يساوي 2 بوجو.
- الدينار السلطاني ذهب يساوي 10 رايلات كوارتز ثم 12 ريالا و7.20 فرنك.
- المثقال يساوي أقدم العملات ذكرها السيوطي 24 خروبة.

يسود الاقتصاد التقليدي في الزواوة أغلب معاملاته الداخلية والخارجية، اقتصاد المقايضة وتبادل المواد المنتجة محليا بالمسوقة وربما بادلت القرى شعر الماعز والصوف و الزبدة بالمواد الغذائية كالحبوب و التمور أو بالمواد الحديدية والألبسة، لكن الوثائق العدلية تتعامل كتابيا بقيم الريالات الصحاح و الضبلون و الموزونة و الصوردي (ساحي، 2015،ص 155).

خاتمة:

من خلال ما تمّ استعراضه من مجمل المظاهر الاقتصادية والاجتماعية التي تؤديها المبادلات التجارية الخارجية والداخلية وفي مقدمتها الأسواق في إقليم إمارة كوكو وطبيعة نظم المبادلات التجارية المختلفة البحرية منها والبرية الصادرة والواردة، بالإضافة إلى ما تمثله هذه الفضاءات الاقتصادية من دور هام في حياة المجتمع الزواوي في العهد العثماني بالجزائر، فإننا نتبين حجم المبادلات التجارية والاقتصادية الهامة التي كانت تتمظهر في نوع السلع المباعة والمقتناة من طرف ساكنة إمارة كوكو وما جاورها، والتي تعددت أنواعها بين الغذائية والصناعية والحرفية وحتى الحربية منها، كما تبيّن حجم نظام الصرف والبيوع وتعدد العملات ونظام المعاملات المتداول بها بين الجزائري والاسباني وحتى المغربي وما يقابلها من أوزان ومكاييل، وهو ما يبين نوعية المرتادين لهذه الأسواق من غير سكان زواوة، والذين رخصت لهم السلطة العثمانية التعامل مع السكان في المدن و الأرياف، مقابل ضوابط وقوانين يشرف عليها أمناء الأسواق وضباطها، بالإضافة إلى بروز دور هذه الأسواق في الحياة العامة لسكان الإمارات والقوى المحليّة، خاصة ما تعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية والدّينية، فهي تجعل من هذه الفضاءات التجارية مؤسسات مركّبة متعددة المهام والوظائف؛لتكون بمثابة القلب النابض والرئة الحيوية لسكان إمارة كوكو الذين يغلب عليهم الطابع القروي الصغير والضخم المتباعد أو المتقارب في السكن؛ بما يجعل من السوق الأسبوعي أو الشهري أو الموسمي حتى نقطة التقاء ضرورية وفاعلة لتكوين العلاقات والمصاهرات والتحالفات وفض الخلافات والنزاعات، وحتى الاستنفار في الحرب.

الملحق رقم01: إمارتي كوكو وبني عباس بمنطقة زواوة والطرق السلطانية والتجارية.

عن جمعية جيهيماب GEHIMAB

الملحق رقم 02: أمر من محمد باشا إلى أهل بجاية بتعيين مصطفى بن أحمد المقراني قايد قائدا وناظرا للكراسة والزيت

وقبطانا للميناء في بجاية.

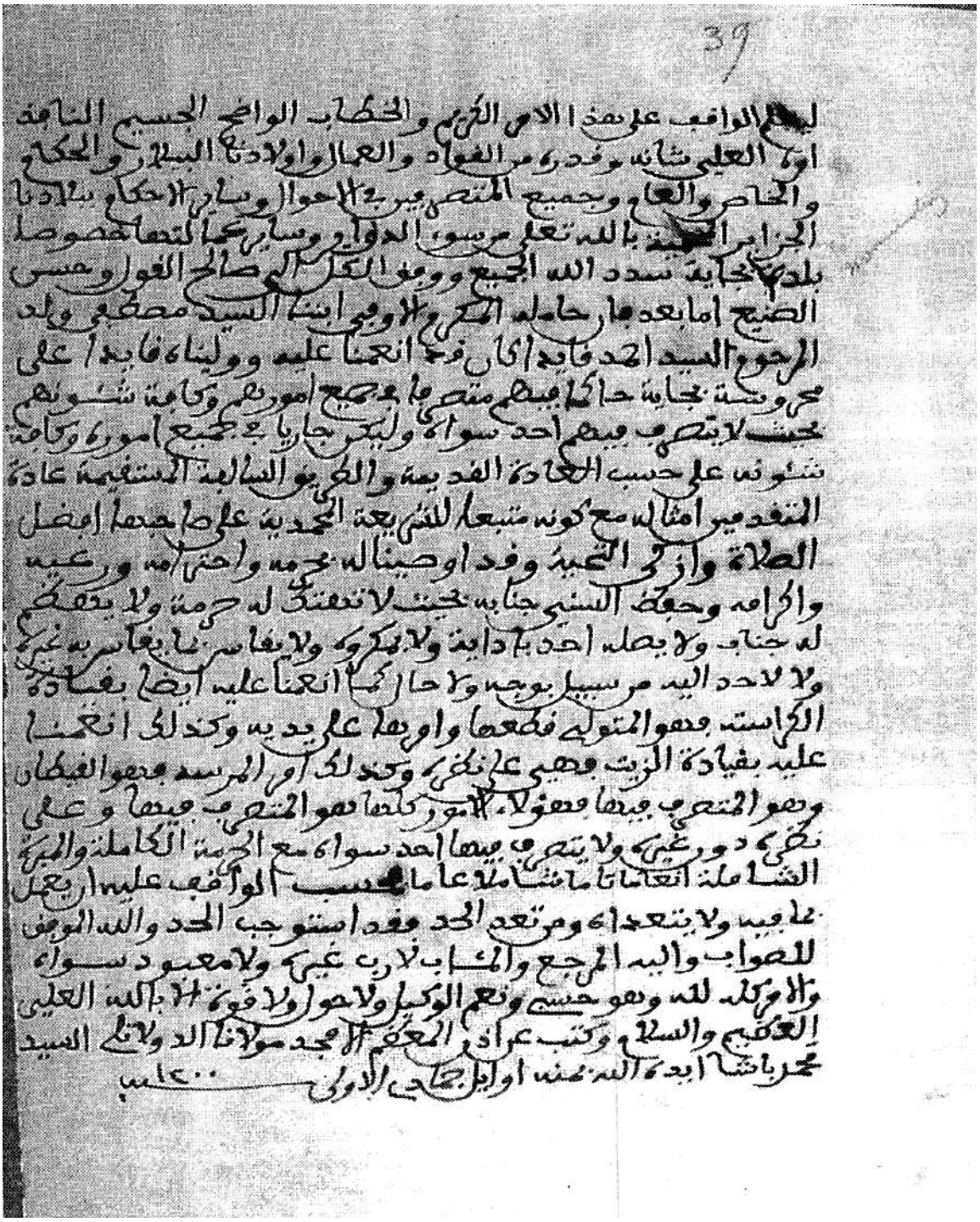

الملحق رقم 03: خريطة تبين التنظيم الإداري والعسكري لمنطقة القبائل خلال العهد العثماني.

إعداد الباحث

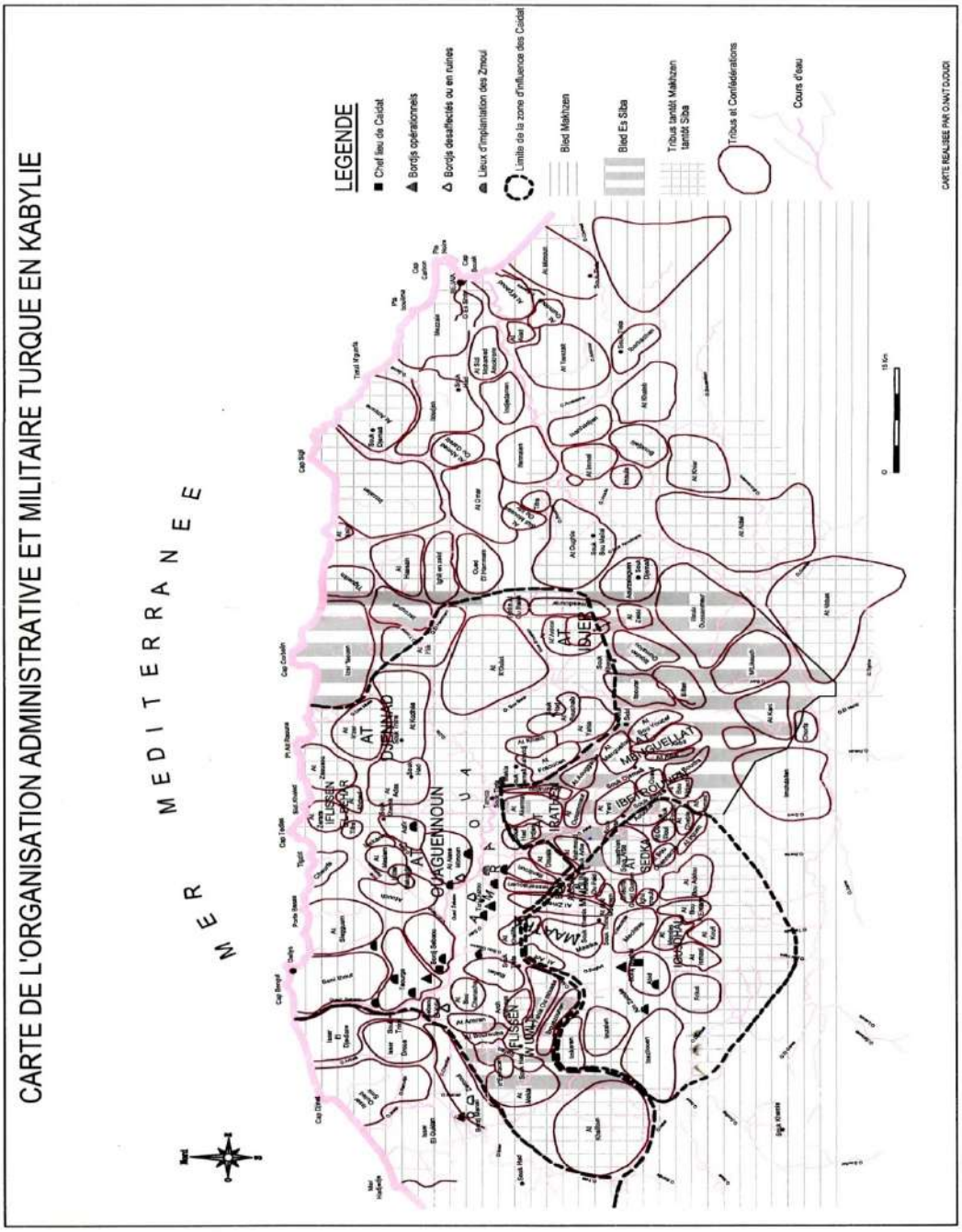

قائمة المصادروالمراجع:

1) أرزقي شويتام. (2009). المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.الجزائر.
2) الحسن الوزان. (1985). وصف إفريقيا الإصدار 2، المجلد 2. (ترجمةمحمد حجي و محمود الأخضر)، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
3) الزبيري محمد العربي. (1984). التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792- 1830، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
4) حمدان بن عثمان خوجة. (2005). - المرآة. سلسلة التراث، (تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري)،منشورات ANEP، الجزائر.
5) زيدين قاسيمي. (2007). قيادة سيباو 1720-1857 مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر.
6) ساحي أحمد. (2015). الزواوة من القرن 16 حتى 18 – عهد إمارة كوكو 1511هـ– 1767 م، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر.
7) علي بن شيخ. (2017، 2018). مملكة كوكو، ونظامها السياسي والعسكري،أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، قسم اللّغة والثقافة الأمازيغية: جامعة تيزي وزو،الجزائر.
8) فندلين شلوصر. (2007). قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837 .(ترجمةأبو العيد دودو)، الجزائر عاصمة الثقافة العربية : وزارة الثقافة.
9) مارمول كاربخال. (1989). افريقيا.ج2. (ترجمه عن الفرنسية محمد مجي وآخرون)،دار نشد المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط المملكة المغربية.
10) مجهول. سيرة الزواوة، مخطوط بقسم المخطوطات. رقم 3012 المكتبة الوطنية الحامة الجزائر.
11) ناصر الدين سعيدوني. (2000). ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.لبنان
12) نبيل بومولة. (2013). صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، إمارة المقرانيين في القرن 10هـ/16م، دار هومة للطباعة والنشر،الجزائر
13) نبيل بومولة. (جوان 2017). إستراتجية الأتراك العثمانيين اتجاه القوة الناشئة ببجاية . مجلة العلوم الإنسانية،مجلة دورية علمية سداسية محكمة متعددة التخصصات ، ج 2 (العدد السابع)، الجزائر.
14) نبيل بومولة. (2009- 2010). القوى المحلّية في منطقة القبائل الشرقية في القرن 10هـ 16م بني عباس نموذجا. ، جامعة الجزائر. الجزائر

15) هانوتوولوتورنو. (2013). منطقة القبائل الكبرى، العادات القبائلية ، التنظيم السياسي و الإداري. (ترجمة مزيان الحاج أحمد قاسم،) منشورات كرجا تيزي وزو، الجزائر.

16) يحي بوعزيز. (1980). طرق القوافل والأسواق التجارية الصحراء الكبرى كما وجدوها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر. مجلة الثقافة (عدد 59)،

17) (A) Berberuger .(2011) .les turcs en Kabylie, éditions les belles lettres, Alger.

18) (CH) Aucapitaine .(1860- ,1859) .les colonies noirs en Kabylie,in R.A ,n4.

19) Berberugger .(1864) .captif et patron a Alger en 1640, in R .A ,n8.

20) E.CARETTE .(1844) .exploration scientifique de l'Algérie pendant les années (1840,1849, 1842) études sur la Kabylie proprement dit . paris , imprimerie nationale p.

21) Federman .(1867) .notes sur l'histoire de l'administration du beylik de titri,in R. A , n11.

22) Nabil BOUMOULA .Mai, (2015) .La kalaa des Béni Abbès en Algérie, un Royaume au cœur de la Kabylie .

23) Nabil boumoula .(2012) .stratégie des ottoman vis-à-vis , la famille des mokranis aux 16eme siècles . Bejaia Ville d'histoire et de civilisation .Bejaia.

24) Nait Djoudi OulhadJ .(2018) .AT Abbés et koukou ,étude géographique, et ethnohistorique de la kabylie, ottmane, édition El amel. tizi ouzou.

25) P. Fabar (E) Daumas .(1847) .la grande Kabylie, études historiques .les éditions chapitre , Paris.